

نهج السلامة أم سلامة المنهج؟

شاء الله سبحانه وتعالى أن نكون من جموع المسلمين المتأخرين الذين آمنوا برسول الله ﷺ ولم يروه. نسأله سبحانه أن نكون ممن قال عنهم ﷺ «إِيمَانُ أَحَدِهِمْ بِخَمْسِينَ» أو أربعين كما ورد.

في شجاعته ﷺ يقول الإمام علي كرم الله وجهه: «كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسُ وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ» رواه أحمد. ويؤكد أنس بن مالك رضي الله عنه ذلك بما حصل لأهل المدينة يوماً، حين فرعوا من صوت عالٍ، فأراد الناس أن يعرفوا سبب الصوت، وبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم النبي ﷺ على فرس، رافعاً سيفه قائلاً لهم: «لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا» رواه البخاري ومسلم.

وكثيرة هي المواقف التي تجلّت فيها شجاعة رسول الله ﷺ، فقد كان شجاعاً ولم تكن الجرأة طارئة على طبعه. روى أحمد والحاكم في المستدرک من حديث ابن مسعود، قال: «كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَوَلَّى عَنْهُ النَّاسُ وَثَبَّتَ مَعَهُ ثَمَانُونَ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَكُنَّا عَلَى أَقْدَامِنَا وَلَمْ نُؤْلَهُمُ الدُّبُرَ»، وروى الترمذي من حديث ابن عمر بإسناد حسن قال: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ حُنَيْنٍ وَإِنَّ النَّاسَ لَمُؤَلِّينَ وَمَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِائَةٌ رَجُلٌ». وحينئذ ظهرت شجاعة النبي ﷺ التي لا نظير لها، فقد «طَفِقَ يَرْكُضُ بَعْلَتَهُ قَبْلَ الْكُفَّارِ وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ * أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ».

ظهرت شجاعة رسول الله ﷺ، الذي كما قالت عنه أمنا عائشة رضي الله عنها: كان قرآناً. وقد كان رسول الله ﷺ قرآناً في تسامحه وطيب خلقه، وكريم هديه. وكان كذلك قرآناً في حزمه وشجاعته وعزمه. كان قرآناً في قوته في الدعوة لله، والصلابة في الحق والثبات على المبدأ.

هذه الشجاعة وهذا الثبات، كان نهماً يعلم المسلمين أنه لولا ثباته ﷺ على أمره حين أغرته قريش بالمال والنساء والمنصب والجاه، وحين حاربه العرب ورموه عن قوس واحدة، لولا التزامه بما أوحى إليه، لما قامت للإسلام ولا للمسلمين قائمة، ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِفَتْرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٤].

لقد كان يمكن لرسول الله ﷺ أن ينجو يوم حنين بنفسه ليعيد تشكيل جيش قوي يواجه جموع المشركين، أو يعطي قريشاً بعض ما تريد ويطمئنهم كي يصرف أذاهم عنه ويتفرغ للدعوة سراً فيكثر سواد المسلمين. ولكنّه معلم يخط لمن بعده من المؤمنين قاعدة في الدعوة لا مجال للحيد عنها: سلامة المنهج مقدمة على سلامة النفوس.

يقول الشيخ عبد العزيز الطريفي فك الله أسره: من أخطاء الدعاة حصر الإسلام بالآداب والسلوك وترك التوحيد والحلال والحرام، ولو اقتصر الرسول ﷺ كما اقتصروا لكان أول المؤمنين به أبا لهب! ويقول: كثير من الناس عند انتشار الباطل يصمتون مع القدرة على البيان ويرون في هذا أدنى مراتب السلامة، وهذا خطأ، لقول الله ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يعني ويسكتون.

إن كل مسلم معرّض أن يوضع أمام الخيار الصعب، وهو سهل على من أعانه الله؛ أن يختار بين سلامته وبين ثباته على المبدأ.

حيث تكالبت الأمم على المسلمين ورموهم عن قوس واحدة. فصار الإسلام إرهاباً ومرضاً عقلياً وخطراً قومياً تحاربه أمريكا والصين وروسيا وكل أصاغر المجرمين. يضيّقون على أهله في أرزاقهم ومعايشهم ويحاربونهم بالاعتقال والتهجير والقتل وانتهاك الأعراض. فالإسلام في غربة، والمسلمون في عهد وصفه ﷺ بقوله: «ثُمَّ جَبَرُوتُ صَلْعَاءَ لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا مُتَعَلِّقٌ، تُضْرَبُ فِيهَا الرَّقَابُ، وَتُقَطَّعُ فِيهَا الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ، وَتُؤَخَذُ فِيهَا الْأَمْوَالُ».

وكل جماعة معرضة لهذا الاختبار الذي يتميز فيه الصادقون المخلصون المستعدون لدفع فاتورة الإيمان بهذا الدين العظيم. الفاتورة ذاتها التي دفعتها سمية ودفعها عمار ودفعها سيد الخلق ﷺ، ويدفعها من بعده محبّوه.

الثبات على المبدأ ليس سهلاً أبداً بل يكاد يكون موتاً في الحياة، ورسول الله ﷺ يصفه بأنه كالقبض على الجمر. وما كان لجمرٍ في يد حامله أن يكون بارداً إلا عند من يتعني عز الدنيا والآخرة ويستهيّن أمام رضا الله بكل صعب.

وإن المفارقة العجيبة أن مردي السلامة لا يحظون بها، بينما من يضحى بالسلامة لأجل المبدأ ابتغاء وجه الله، يحصل له ما لم يكن وضعه في حساباته حين اختار التضحية، من علوّ كعبه بين الناس، والقبول الذي يلقاه من المؤمنين، وتخليد التاريخ لاسمه في صفحات من ذهب.

والتاريخ شاهد لا ينسى. يروي لنا كي لا ننسى ولا نضل، لكن لا يتذكر إلا أولو الألباب. فلولا اختيار القاضي ابن مفلح نهج السلامة عند قدوم تيمورلنك لاحتلال دمشق، لما تخاذل الناس واختلفوا - وقد كانوا من قبل قد قاتلوا قتالاً أعجب التتار وأرهقهم - ولما استطاع التتار احتلال عاصمة المسلمين.

يعلمنا القرآن أن من اختار الانحناء للعاصفة فقد اختار التنازل عن دينه. والتفريط يبدأ بالصغائر. فهذا رب العالمين يخاطب سيدنا محمد ﷺ ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ والركون بالقليل للظالمين يعني تنازلاً، يتبعه تفريط ثم بيع للمبدأ بالكلية؛ لذلك كان الجزاء ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾.

وهذا ما فقهه سيدنا محمد ﷺ حين قال لقريش التي أغرتة بالمال والجاه والمنصب والنساء لثلا يعيب آهتهم «وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ». وقد كان رسول الله ﷺ يعلم أن العرب تحاربه عن قوس واحدة، لكن لسان حاله ﷺ كان «وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ،... وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» وهذا ما فقهه سعد بن معاذ حين بايع هو والأنصار رسول الله ﷺ بيعة الحرب، بايعوه على هلكة الأموال وقتل الأشراف نصرة لدين الله.

بهذه النفسيات العظيمة بنيت دولة الإسلام الأولى، وهذه الهمم العظيمة وصل الإسلام لأصقاع الأرض وهدم أعظم إمبراطوريتين في ظرف عقدين من الزمان. وهذه النفسيات هي التي يريد القرآن أن يغرسها في نفوس المسلمين.

نفسيات تسلك سلوك سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي واجه بطش النمرود وحده، حين تخاذلت الجماهير وسارت بسداجة الجهل خلف من ادعى أنه يميت ويحيي ﴿قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾، فقال عنه ربه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

أن نكون كسيدنا موسى عليه السلام حين واجه فرعون وحده ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾.

بعزمات كعزمة أبي بكر حين حفظ الدين بقتال المرتدين، فقال "والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه".

وعزمة جعفر حين رفع راية رسول الله بعد أن قطعت يده حتى استشهد دونها.

وعزمة سلطان العلماء العز بن عبد السلام حين حرّض قطز على قتال المغول رغم تخاذل العلماء عن قتالهم وخوف الأمة منهم، فكان نصر عين جالوت.

وعزمة كعزمة الخليفة السلطان عبد الحميد الذي وقف بوجه أوروبا كلها وحارب جهود يهود لاحتلال فلسطين وهدم الخلافة رغم كل المغريات والضعوطات والمكائد.

في الفتن تختار الكثرة نهج السلامة بينما يثبت الصادقون رغم قتلهم على سلامة المنهج. ولولا هذا الثبات ما كان النصر ليأتي.

الكثرة تحتج بأنها تداهن حتى يتيسر لها احترام النصر، لكنه فاتهم أن الله لا يريد منك احترام الجهد بقدر احترام النهج وسلامة الطريق. فهل كان جيل النصر سيولد لو اختار أصحاب الأخدود نهج السلامة وتذرّعوا بأنهم يريدون تربية جيل مؤمن قوي ينتقم من الطاغية؟ كلا، فالأجيال تترى حسب صنائع من قبلها، فمن رأى جبن والده الذي يغرد عن الشجاعة سينشأ ذليلاً منافقاً.

هل كان الإسلام سيصلنا لو اختار رسول الله ﷺ وصحابته مداينة قريش كي يجهزوا جيشاً قوياً ينصرهم على كفار مكة؟ كلا فإن التنازل كالسقوط عن الهاوية لا ارتفاع بعده. وإن الأمر مرعب مخيف ﴿فَتَرَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾.

وهذا تحذير من رب العالمين. يقول القرطبي "مبالغة في النهي عنه لعظم موقعه في الدين وتردده في معاشرات الناس؛ أي لا تعقدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزل قدم بعد ثبوتها، أي عن الأيمان بعد المعرفة بالله. وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه؛ لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر".

فاللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

كتبته للمكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

بيان جمال